

الشابة الراعشة ، يتعلق
نظر الآخر منا بطفلها
الرضيع الصغير . ولا
نعدم بعد من ينكرها
على بلانشو ويفضل عليها
صورة أخرى له أو صورة

مشكلة الجمال في الفن

بقلم احمد ملك زكي

لغيره تعرض لنفس الموقف .

وكانت هناك لوحة نادرة اقامت الكنيسة البابوية ولم
تقعدها خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ،
وصور فيها « كرافادجيو » القديس متى والملاك واختلف
الناس شعباً بالنسبة اليها ، وكان اغلبهم منكرآ لها ، ووقفت
فئة قليلة تتحدث عما فيها من جمال . واليوم لا تزال نقرأ ان
شيئاً واحداً كفل لها الخلود ، وهذا الشيء ليس ما فيها من
نسق ولون وضوء وظل ، وانما هو نظرة القديس الشرهة
الشرسة .. حتى لكأنها ترمز الى ذلك الشر الكامن في نفس
كل انسان !!

هكذا يبدو كل شيء معقداً ، وهكذا يبدو اختلاف
معايير المعرفة ، ويظل الفن بعد ذلك او قبل ذلك مبهم
المعالم ضائع الحدود ، وحسبه - وهو الذي يقترح حلولاً - ان
يدفع بنا الى وهم عريض .. اليس يعطينا شيئاً آخر غير ما
يصدى له ؟ انه لا يعبر عن الحياة كما هي وانما يضيف اليها قيمة
اخرى هي ما نسميها بالدافع الجمالي .. أصلها نفس الفنان ..
شخصيته .. ذوقه .

فليكن اذن في تقسيم الفنون طريق لما نريد ، ولنقل
باديء ذي بدء ان هذا التقسيم الذي يضع انواع الفنون في
مجموعتها التشكيلية والتعبيرية هو وحده ما اثار مشكلة الجمال
التي نحن بصدددها . وثمة شيء لا نستطيع اهماله لانه في الواقع
أساس مشكلتنا وأساس التقسيم جميعاً ، وهذا الشيء هو
« الشكل » .. ليس هو بالمعنى الذي تدل عليه كلمة Shape
الانجليزية ، فاذا قلنا البناء او التكوين كان ذلك اقرب
وادق ، حتى لنستطيع بسهولة ان نتعمق آراء « جوتيه » في
دراسته للاشكال الطبيعية ، وكان قد انتهى الى ان الفن عملية
تحول وتكون لها ، ذلك ان الفنان لا يجد الجمال بقدر ما
يحدده ويقرره .. يحدده ويقرره في أشكال نستطيع ان نلمحها
حتى في قصيدة الشعر !

هل في وسعنا تحديد
الفن وتقنيته .. تعريفه
تعريفاً جامعاً مانعاً كما
يقول اهل المنطق ؟
استقصاء دقيق لما
تثيره مسائل نقده ،

ومتابعة لتكوينه البطني في بناء المجتمع ، وتعمق لنفس
عبقرية الخالد .. كل أولئك تدل دلالة واضحة على ان مفهوم
واحداً من مفوماته لا يستطيع ان يثبت ثبات قاعدة
ساذجة من قواعد العلم ..

هو موجود حقاً وجود الاله ..

موجود اجل .. ونحسه كما نحس ما حولنا من هواء ،
وما تحت أقدامنا من تراب ، وما عيس أيدينا وأعيننا وأفتدتنا
من أسباب الحياة . ولكننا لا نملك الوصول إلى حقيقته ، وان
كنا نهدف به الى ان يكون قيمة إنسانية كبرى .

على ان النظرة العامة لعمليات التشكيل الجميل تعطينا
اولى درجات المعرفة به .. اولى الدرجات وليست أسماها
ولا احكامها ، فاذا سألتنا : ما الفن ؟ كاث اول ما ينهض
أمامنا قيمته الجمالية التي يخاطبنا بها ويمزجنا فيها ، وهذه القيمة
نفسها معقدة تعقيداً لا سبيل الى انكاره او الغض منه ..
انها تعطينا التفسير الوجداني للحياة كما يعطي العلم التفسير
التجريبي ، وكما يعطي الدين التفسير الغيبي ، والفلسفة التفسير
العقلي !

ومع ذلك يظل كل شيء غامضاً ، ولا يزال السؤال
قائماً : ما الفن ؟ بل تتعقد المشكلة اذا اخفنا السؤال التالي :
وكيف يكون سبباً للتفسير او المعرفة ؟

ونعود الى التشكيل الجميل اول حدود الفن لنقول
بتفاوته واختلاف الأذواق في قبوله أو رفضه ، اذ ليس
يستلزم ان يكون كل جميل جميلاً عند الجميع .. لسبب
ظاهر هو اختلاف جهاز الحس في كل نفس ، ومع ذلك فلا
سك ان هناك عناصر تعمل على تحريك الجهاز .. تعمل على
الاثارة والمتعة .

قد نعجب بعارية « بلانشو » ولكن معرفتنا بها تختلف
واذا بعضنا يقف عند صراحة الانثى فيها وفتنتها ، وبعضنا
الآخر يقف عند امومتها وحنوها . وبينما يتملى احدنا نوثتها

الاشكال !

وقرر ريد في كتابه « الفن والمجتمع » ان وثنية الاغريق كانت رمزاً للمثالية التي عملت على ازدهار الفن فترة من الزمن . وقد تعرضت هذه المثالية لكثير من التعديلات فيما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، وان كانت قد ظلت قواعد ثابتة للتراث الكلاسيكي .

ويطول بنا الامر لو جعلنا نستعرض معه طريق الفن في تطوره الا اننا نلمح من قريب ان الموضوعات التي عولجت بسذاجة عند البدائيين وبقوة واغراق عند الاغريق وباتقان وسحر لون عند فناني عصر النهضة قد اصبحت تعالج منذ اواخر القرن الماضي بعمق وفهم لحقائق الحياة . ومع ذلك فقد رأى « هيجل » ان ايام الفن الجميلة قد انقضت بانقضاء القرون الوسطى وبانقضاء عصر الاغريق قبلها .

الاعتراف بالبراعة اذن امر لا بد منه ، وتكنيك الشاعر او المصور في صوغ الشكل وسيلة لازالة الحواجز بين نفسه ونفس المتلقى وكلمة الفن الآن في مدلولها تحمل كثيراً من شوائب الكلمة اللاتينية بما تدل عليه من حرفة او من براعة في الحرفة . ومن اجل ذلك لا نستطيع ان نزع ان القدماء فهموا الفن كما فهمناه نحن . بل اكثر الظن ان شعورهم وهم ينحتون تماثلاً مثلاً كان مجرد رغبة لاثارة الشعور بالمهارة فقط . فليس عجباً بعد ان يرى سقراط الفن شيئاً والالهام شيئاً آخر ، حتى ليقول عن الشعراء انهم لا ينظمون قصائدهم بطريق الصناعة - يريد الفن - وانما ينظمونها لانهم ملهمون ، ما داموا لا يغيبون عن وعيهم فانهم يعجزون عن الابتكار . يعجزون عن ان يهتفوا بكلامهم المقدس !

لم تكن هذه الكلمة - كلمة الفن - تدل على عبقرية ... كان العمل الفني كما يقول Kulpe يتولد عن مهارات اقل شأناً من العبقرية ...

فهل أخطأنا حين زعمنا قبل ان الجمال كان شيئاً يرن الفنان على تقويمه حين يلين له ، وانه كان في ذات الشكل يحدد ويقرر ليقيم .

هكذا نرى كيف كان يلتقي الفن الجميل بالصناعة الجميلة ! ولم يعد القدماء من يعجب بهم ويتعصب لهم . ولقد كانت للكلاسيكية مدارس تضع قيماً جمالية اساسها صناعة القديم ،

ويقول هيربرت ريد في كتابه « التربية عن طريق الفن » ان الفنانين هم هؤلاء الذين يشكلون Give shape to something ، كما يقول ان احسن آثار الفن ما احسن للفنان تشكيله ، وليس في الواقع ثمة شيء يفضل شيئاً الا بمقدار ما يحدده الشكل من قيم الجمال ...

يمتاز الفن اذن بالشكل الجميل .. ايأ كان لون هذا الفن ، وايأ كان نوعه وطبيعته .

يمتاز بالشكل الجميل ، او يمتاز بالبناء الجميل اذا دققنا التعبير . وهو من هنا في اشد ما يكون حاجة الى البراعة . والفنان يستطيع ان يجد من صفات الجمال ما لا يجده الرجل العادي ، ويستطيع ان يرن عليها ويتقنها ، ومن هنا كان هناك كثير من محترفي الفن اكثر نجاحاً مما نظن وبخاصة هؤلاء الذين عملوا من اجل اغراض طقوسية معينة .

والواقع ان الصورة الممثلة للشيء في الاسلوب الفني مجردة من شكل ذلك الشيء مهما يكن قرب الواقع لصورته .. فالصورة فيها مهارة الفنان .. فيها هذه الصفات الجمالية التي تثير ...

واذا كانت الصفات الجمالية مما يمكن ملاحظته والتدريب على الاجادة فيه ، فقد اقترن تاريخ الفنون بمحاولات لتحقيق مثاليات مختلفة . وقد حرص القدماء في آثارهم - القدماء البدائيون - على ابراز حيوية الكائن بتجسيم أعضائه ، ثم غبروا بعد ذلك وقد رتقوا عقولاً لا يعطون جمالية جديدة قوامها التخليص والحلية المنمقة . واذا القيمة الجمالية بعد أن كانت طبيعية عضوية تصبح عقلية هندسية .

على ان الفن الهندسي في جمالته ومما فيه من تجريد - تجريد الشيء من واقعيته - معقد الدلالة رغم بساطة الاداء ، ولسنا نطمع مثل غيرنا في ان نقول بغير حذر انه كان رموزاً لما وراء الواقع من عالم الارواح اذ لم تكن هناك صلة منطقية بين الظاهر والختفي . وهل يستطيع العقل البدائي ان يتصور دنياه وحدة لا تنفصل فيها المادة عن الروح ؟

من هنا لم يكن قصد الجمال في هذا الفن تفسير الظواهر الطبيعية كان الجمال أثراً من آثار المهارات الذاتية .. كان الفنان يعرف انماطاً جديدة من الجمال فأودعها

الى بلوغ مرتبة الموسيقى بما تحققه من نعم وايقاع ، وما
الموسيقى في ابط مفهوم لها بانسجام جملها وتألف وحداتها
سوى لون من الوان الهندسة !!

قد يكون في ذلك اقتسار اي اقتسار ، ولكنه يلقي
كثيراً من الضوء على حقيقة الجمال ، حتى اذا التمسناه في القصيدة
العربية - والشعر كالموسيقى فن تعبيرى - وجدنا فيها هذه
النسب التي ينبغي ان تراعى ؛ واذا القصيدة لها اطار خاص لم
تستطع الى الآن التخلص منه ، واذا هي لها صورة ظلت باقية
في شعرنا حتى ايامنا هذه . وفي حرص الشاعر على ابجره
وتفعليلاتها ، وعلى القافية ورويها ، وعلى البيت وشطريه -
اضاع كثيراً مما يجب ان يحرص عليه ، وجاء شعره مغلفاً
بقشور من الصنعة والبهرجة .. ففقد كثيراً من عناصر الصدق
والحياة ...

اما اليوم فلم يعد الجمال مديناً للتقليد بشيء كبير ، ولم
يعد يحمل هذه الهندسية وهو اذا عني بها فليس عن قصد
وارادة ، واذا الفنون في جملتها لا تحكم الصياغة الشكلية ، ولم
يعد الفنانون يعنون بالشكل بقدر ما يعنون بالمضمون ،
واضطر النقاد الى ان يتنازلوا عن فكرة التقييم النسبي بعد
ان اصبح عند المحدثين قيم تعبيرية تأخذ اصولها من المجتمع .
غير انه من الجور على المنهج ان نقول ذلك دون ان
نتعرف حقيقة المذاهب الفنية الحديثة ، فالعرض وحده لها
كفيل بالقاء الضوء على مشكلة الجمال وعلى دليل تقلبها وتغيرها
واختلاف تقديرها .

لسنا نريد ان نقف عند كل مذهب ، فذلك مما لا سبيل
له هنا ولا طاقة لنا عليه في هذه العجالة ، ولكننا نقصد الى
ثلاثة مذاهب بعينها ...

اما المذهب الاول فلأصحاب التعبيرية ، وهؤلاء يخالفون
الواقعيين الذين يميلون الى تمثيل العالم تمثيلاً لا يبعد كثيراً عما
تتعرفه حواسنا .. يخالفونهم حين يوجهون عنايتهم الى
الانفعالات او الى احساسات الفنان الذاتية ، وعادة ما يكون
ذلك على حساب الواقع العلمي . فاذا اعتبرنا الكاريكاتير في
الرسم لوناً من الوان التعبيرية نرى الى اي حد يفنى الواقع او
يتشوه على الاقل في سبيل المعنى الذي يستهدفه الفنان .

وفي القصة الكاريكاتورية نلص ما نلصه في الصورة
الكاريكاتورية .. من تشويه لحدود الشكل من اجل تركيب
حركات الحياة في تكسرات الخطوط وتعرجاتها ؛ فالجمال عند

وحين كان يخرج على هذه القيم احد لا يعتد به . ولعل
« هوجارت » اكبر من وجد عنتاً من الكلاسيكيين .. ذلك
انه اتبع انماطاً عصرية في صورته اعتبرت آنذاك هزيلة بمجوعة ،
ولما كتب قصصه حرص على ان يحسن تكنيكها ويحقق لها
درجات عالية من العظمة الشكلية الا ان حظها كان حظ صورته
تماماً ، ولم يجله قومه - والنقاد بخاصة - الا لعواطفه الانسانية
ومحاربه فاسد الاخلاق . وكان عندهم فناً ناقصاً !!

نستطيع على اي حال ان نطمئن الى هذا الحكم .. وهو
حكم يشمل آثار القدماء حتى المسلمين منهم .. فهؤلاء لم يكونوا
يروون الاعمال الفنية تمييز عن الاعمال الصناعية المتقنة بشيء ..
فالشعر صناعة ، والرسم حرفة ، والموسيقى مهنة . ويكفي
ليؤمنوا بذلك انهم لا يبتكرون الا بعد استهداف شيء
محدد ... لم يكن الابتكار عندهم الهاماً . لم يكن صدقة ..
وانما كان قصداً ومماناة وممارسة ومحاولة .. كانوا يلتقون مع
فناي الغرب .. كانوا يخرجون الاثر اخراجاً ارادياً تقليدياً ..
لم يكن الدافع تلقائياً عفويماً ، وانما كان متعمداً مقصوداً اليه ،
مرسوماً له الاصل .. لم يكونوا بحاجة قاهرة لاعطاء معنى
فكري لاي تصميم من تصميماتهم الفنية ..

الا ما كان اشبههم بفناي غينيا الجديدة - الياو - لقد
نقل « ريد » في كتابه « الفن والمجتمع » عن دكتور سيلجمان
انهم لا يعنون بمعنى ما فيما ينحتون او فيما يرسمون وينظمون
لاغانيم ، واعتادوا ان يقولوا اذا سئلوا عن ايضاح لآثارهم :
هكذا فعل آباؤنا !

ونحن لا نذهب مع سيلجمان ان يكون ذلك مثلاً واضعاً
على حب الانتاج الجمالي لذاته ، وانما نقول ان في هذا الاحتذاء
دليلاً على معرفة الفنان بأنماط الجمال وصنعها بمهارته .

فاذا تقدمنا الى العصر الحديث نجد للجمال قيماً اخرى .
وذلك ينبغي ان يحدث ؛ اذ قد تطور مفهوم كلمة الفن نفسها
من ناحية وجنحت فروع الفن - ولا سيما التشكيلي
منها - عن العناية بالصياغة الشكلية من ناحية اخرى . كانت
الفنان قديماً يعنى بروعة البناء ، ويحرص على الاناقة في التصميم ،
ويصر على ان تكون هناك نسب منطقية بين اجزاء الاثر .
بل ربما اصطنع التناسق والتناسب فيوفر لها نغماً رتيباً ويهبها
صفة الانسجام ، فيصبح الجمال عنده نوعاً من الهندسة .

التمس ذلك في الارابيسك ، وان شئت فعد الى مجموعة
الفنون التعبيرية تجرد « شوبنهاور » يقول ان كل الفنون تتطلع

هؤلاء جمال مضمون .. الجمال عندهم لسان يعبر عن حاجة اساسية من الحاجات الاجتماعية .

اما المذهب الثاني فلاصحاب السريالية ، وهؤلاء منبتون عن البناء الاقتصادي للمجتمع تاثرون عليه ، وفنهم تبعاً لذلك - شعراً كان او نثراً او نحتاً - صورة لهذه الثورة . ويرون ان عملهم الفني ليس في الواقع تصويراً للعالم او تفسيراً له وانما هو محاولة لقلبه وانكاره . ومن هنا نلمس لماذا يلتقي السرياليون بالماركسية

واذا كان ماركس يرى ان الجهاز الاجتماعي كل لا يمكن فهم اجزائه الا بوجودها مجتمعة في وحدة ، فكذلك الفن ينبغي الا يكون مبعثه كل جوانب الوجود من حلم وهم وعقل وحسد وغريزة . وطبيعي بعد ذلك ان يتحول الحلم والواقع الى واقع آخر مطلق ، هو ما فوق الواقع . وكذا تعقد في ايديهم الشكل الفني .. تعقد في محاولتهم مزج النفس بالعالم الخارجي ، اليس هناك تضارب بين هذين الواقعين؟ اننا لانحس قليلا او كثيراً ما في آثارهم الفنية من جمال !!

الا اننا حين نقول ان السريالية تلتقي بالماركسية لانزعجهم من اصحاب الواقعية الاشتراكية socialist realism - اصحاب المذهب الثالث الذي نعرض له - لانزعجهم كذلك بكل ما في الواقعية الاشتراكية من مقومات . بل يكفي ان نقول ان هذه الواقعية باتجاهها الفني - وهو اتجاه يعنى بعرض الواقع بكل تناقضه الى جانب استهدافه هدفاً مقصوداً - نقول ان هذه الواقعية والحال تلك غير السريالية في اغلب الوجوه ، بل هو يجارها .. يجارها بحرصه على الايمان بالواقع ، وعلى ملاحظة تحركه وتطوره وتوكيد انتصار الطبقات الشعبية المكافحة .

الدكتور اميل صباغه

عضو في الجمعية السكندنافية لجراحة الجهاز العصبي
اختصاصي في امراض وجراحة الدماغ والجهاز العصبي
من مستشفيات باريس والسويد
بيروت شارع فرنسا - تلفون : ٣٢٨٤٣

ولكن اين عنصر الجمال في هذا المذهب الفني ؟

يجب اولاً ان نسلم بان الهدف الذي يستهدفه هؤلاء الواقعيون - وهو هدم الرأسمالية - حدا بهم الى اختيار الظواهر الطبيعية التي تبني مذهبهم من غير رتوش ... من غير تكوين ، بل من غير تزويق . فهو يجب ان يشق طريقه بظلال سود ، وليخضب هذا الطريق بالدم والعرق والدموع ! من هنا كانت صور الاشتراكيين قائمة ، ولكنها لا تبعد كثيراً عن صور الفن الشعبي . ولو سلمنا مع القائلين بان هذا لم يكن قط ذا اهمية جمالية او ثقافية لاسرفنا في هذه القالة اسرافاً بيناً . ذلك ان عنصر الجمال في الاشتراكية في المضمون .. كامن في المضمون ، لانهم اصحاب فلسفة ولهم موقف في الحياة ، وثمة فرق - لاشك - بين هؤلاء وبين الذين يعملون بغير حافز . عنصر الجمال اذن في مدلول الاثر ، والا فما غناء فرض الهدف العقلي القبلي عليه ؟ وقد قيل ان للاشراكيين الواقعيين ان يحملوا الحلم الجميل ولكن على شرط ان يحددوا الاتجاهات التي تضمن لهم سير الحلم مع غايتهم في الهدم والبناء ... هدم الرأسمالية وبناء الاشتراكية .

وبعد ، فابن نضع فنانينا بين هؤلاء ؟

ليس بين ايدينا الامكانيات التي يحدد وتقرر ، غير اننا اذا اخذنا بالدرس كثيراً من شعر الشباب الصاعد فلن يطول عناؤنا في معرفة مواطن الجمال . فسنازه قد تحرر من قيود الهندسة القديمة ، واستحال الجمال عنده تفتت التجربة وبسطها وتحليلها لتصل الى قرائه في سهولة وداعة وبلا صخب وضجيج وموسقة مفتعلة .

فاذا تحولنا الى اصحاب الفن التشكيلي - من الصاعدين كذلك - وجدناهم اقل عناية بالقيم البلاستيكية من الاكاديمية ، واذا هم في اتجاههم الى التعمق يثيرون مشكلات اجتماعية وانسانية من الصعب ان نجد مثلها في آثار القدماء . بل يعمد كثير منهم الى التشويه والانحراف ليكون اقوى تعبيراً واحفل معنى واصدق انسانية .

والخلاصة ان جمال التكوين كان قبل شيئاً بصرياً فاصبح اليوم نفسياً تكشف عنه عملية التفسير التي يقوم بها الناقد المتنصر الواعي .

القاهرة

احمد كمال زكي

من الجمعية الادبية المصرية